

تفسير البحر المحيط

@ 377 @ الأُولَى { . لَعَلَّاهُمْ } ترج بالنسبة إليهم { لَعَلَّاهُمْ } يَهْتَدُونَ
لشرائعها ومواعظها . .

{ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ } أي قصتهما وهي { آيَةً } عظمى بمجموعها
وهي آيات مع التفصيل ، ويحتمل أن يكون حذف من الأول آية لدلالة الثاني أي وجعلنا ابن
مريم آية وأمه آية . والربوة هنا . قال ابن عباس وابن المسيب : الغوطة بدمشق ، وصفتها
أنها { ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } على الكمال . وقال أبو هريرة : رملة فلسطين . وقال
قتادة وكعب : بيت المقدس ، وزعم أن في التوراة أن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء ،
وأنه يزيد على أعلى الأرض ثمانية عشر ميلاً . وقال ابن زيد ووهب : الربوة بأرض مصر ،
وسبب هذا الإيواء أن ملك ذلك الزمان عزم على قتل عيسى ففرت به أمه إلى أحد هذه الأماكن
التي ذكرها المفسرون . وقرأ الجمهور { رَبَّوَّةٍ } بضم الراء وهي لغة قريش ، والحسن
وأبو عبد الرحمن وعاصم وابن عامر بفتحها ، وأبو إسحاق السبيعي بكسرهما وابن أبي إسحاق
رباوة بضم الراء بالألف ، وزيد بن عليّ والأشهب العقيلي والفرزدق والسلمي في نقل صاحب
اللوامح بفتحها وبالألف . وقرء بكسرهما وبالألف { ذَاتِ قَرَارٍ } أي مستوية يمكن القرار
فيها للحرث والغراسة ، والمعنى أنها من البقاع الطيبة . وعن قتادة : ذات ثمار وماء ،
يعني أنها لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها . .

ونداء { الرُّسُلَ } وخطابهم بمعنى نداء كل واحد وخطابه في زمانه إذ لم يجتمعوا في
زمان واحد فينادون ويخاطبون فيه ، وإنما أتى بصورة الجمع ليعتقد السامع أن أمراً نودي
له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يوحد به ويعمل عليه . وقيل : الخطاب لرسول الله صلى الله
عليه وسلم) وجاء بلفظ الجمع لقيامه مقام { الرُّسُلَ } وقيل : ليفهم بذلك أن هذه
طريقة كل رسول كما تقول تخاطب تاجراً : يا تاجر اتقوا الربا . وقال الطبري : الخطاب
لعيسى ، وروي أنه كان يأكل من غزل أمه والمشهور من بقل البرية . وقال الزمخشري : ويجوز
أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة فذكر على سبيل الحكاية أي { *
أويناهما } وقلنا لهما هذا الذي أعلمناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا وكلاهما رزقنا
كما واعملا صالحاً اقتداء بالرسل والطيبات الحلال لذيذاً كان أو غير لذيذ . وقيل : ما
يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه ويشهد له { رَبَّوَّةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } وقدم
الأكل من الطيبات على العمل الصالح دلالة على أنه لا يكون صالحاً إلاّ مسبوقاً بأكل الحلال

{ إِنْ نَّيْ بِمَّا تَعْمَلُونَ عَلَّيْمٌ } تحذير في الظاهر والمراد اتباعهم { وَإِنْ } هَآذِهِ أُمَّتُكُمْ } الآية تقدم تفسير مثلها في أواخر الأنبياء . وقرأ الكوفيون { وَأَنْ } بكسر الهمزة والتشديد على الاستئناف ، والحرميان : وأبو عمرو بالفتح والتشديد أي ولأن ، وابن عامر بالفتح والتخفيف وهي المخففة من الثقيلة ، ويدل على أن النداء للرسول نودي كل واحد منهم في زمانه قوله { وَإِنْ } هَآذِهِ أُمَّتُكُمْ } . . . وقوله { فَتَقَطَّاعُوا } وجاء هنا { وَأَنْزَلْنَا رَبُّكُمُ فَاتَّقُونِ } وهو أبلغ في التخويف والتحذير من قوله في الأنبياء { فَاعْبُدُونِ } لأن هذه جاءت عقيب إهلاك طوائف كثيرين من قوم نوح ، والأمم الذين من بعدهم وفي الأنبياء وإن تقدمت أيضاً قصة نوح وما قبلها فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان والطف التام في قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم ، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته تعالى وجاء هنا { فَتَقَطَّاعُوا } بالفاء إيذاناً بأن التقطيع اعتقب الأمر بالتقوى ، وذلك مبالغة في عدم قبولهم وفي نفارهم عن توحيد الله وعبادته . وجاء في الأنبياء بالواو فاحتمل معنى الفاء ، واحتمل تأخر تقطيعهم عن الأمر بالعبادة ، وفرح كل حزب بما لديه دليل على نعمته في ضلاله ، وأنه هو الذي ينبغي أن يعتقد وكأنه لا ريبة عنده في أنه الحق . .

ولما ذكر تعالى من ذكر من الأمم ومآل أمرهم من الإهلاك حين كذبوا الرسل كان ذلك مثلاً لقريش ، فخطب رسوله في شأنهم بقوله { فَذَرُّهُمْ } فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّى حَرِينِ } وهذا وعيد لهم حيث تقطعوا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، فقائل هو شاعر ، وقائل ساحر ، وقائل به جنة كما تقطع من قبلهم من الأمم كما قال { أَتَوُوا * بِمِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ } . قال الكلبي { فِي غَمَرَاتِهِمْ } في جهالتهم . وقال ابن بحر : في حيرتهم . وقال ابن سلام : في غفلتهم . وقيل : في ضلالتهم { حَتَّى حَرِينِ } حتى ينزل بهم الموت . وقيل : حتى يأتي ما وعدوا به من العذاب . وقيل : هو يوم بدر . وقيل : هي منسوخة بآية السيف . وقرأ الجمهور { فِي غَمَرَاتِهِمْ } وعليّ بن أبي طالب وأبو حيوة والسلمي في غمراتهم على الجمع